الاستئناس
لتصحيح أنكحة الناس

تأليف

علامة الشام الشيخ جمال الدين القاسمي
المتوفى سنة ١٣٣٢هـ

حققه وعلق عليه

علي حسن علي عبد الحميد

دار عمار
عمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الاستئناس
لتصحيح أنكحة الناس

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

دار عمار

الأردن - عمان - سوق البتراء - قرب الجامع الحسيني

ص.ب ٩٢١٦٩١ - هاتف ٧٨٣٢٤٧

تقـديم

بقلم: فضيلة الشيخ محمد ابراهيم شقرة

الحمدُ للهِ الذي وهَبَنَا مِن رَأْفَتِهِ ما يُذْهِبُ به عنّا قَسْوةَ القلوب، ومِن نور كِتابه ما يكشِفُ عن عيوننا غَشَى الكُنُود، ومِن هَدْيِ نبيِّه ﷺ ما يُزيلُ عن صدورنا حَيْرة الشُّرود.

أما بعد،

.. جمالُ الدين القاسميُّ كَوْكَبٌ دُرِّيٌ انْبَثَقَ ضَوْؤُهُ من سَمَاء بلادِ الشَّام، وتَنَوَّرَتْ به أرضُها، وتَهَادىٰ يخفِقُ فوق الآفاق، يملأ العيونَ الشائقَةَ إلى الخَضْراءِ حُبّاً، والقلوبَ الراغِبةُ في الجنَّةِ هَوىً إليها وهُدىً.

أمضى القاسميُّ رحمه الله جُلَّ حياتِهِ في التَّأْليفِ والدَّرْس، فسعىٰ إليهِ طُلَّابُ العلمِ في مسجدِهِ ودارِهِ، يأخذون عنه أُصولَ المعرفةِ والعلمِ، في شَغَفٍ وحِرْصٍ وصَبْرٍ.

نَظَروا وقد حَلَّت بينهم وبين العلم سنون جُرُزٌ، أقْفَرَتْ فيها أرضُ الشام من تلاميذ مَدْرسة شيخ الإسلام ابن تَيْميَّة رحمه الله تعالى، وأَعْوَزَها عِلْمُ الكتاب والسنّة، وظلَّت ترتقِبُ يوماً يُفيءُ فيهِ اللهُ عليها مِن نَعْمائِهِ ما يُغيثها، ويُنبتُ فيها رجالاً من تلاميذ تلك المدرسة، يَسْتذكرون بهم ذلك الصَّوْتَ القويَّ الذي أَخافَ التَّتارَ، وأَخْفَتَ صوتَ المُنْكَر، وشَدَخَ رَأْسَ البِدْعةِ، وأحيا في النَّاسِ سُنَناً أماتَها أهلُ الفُسُوقِ والضَّلالةِ، وَأعاد بناءَ العقيدةِ

الـذي أَعْمَلَتْ فيه مَعَـاولَها أيْدي السّوء، وأَعاد في مُجْتَمَع الشَّام سيرةَ المُجْتَمَعِ الأَوّلِ بما أَتْرَعَ عقله من علمٍ نقيٍّ خالصٍ على أَيْدي شُيوخِهِ الكُثْر، وبما أُوتيَ من قُوَّةِ جَنانٍ، وشدّةِ عارضة، وشجاعةِ قَلْب، شَهِدَ له بذلك كلِّه خصومُه قبلَ مُحِبِّيه، والفَضْلُ ما شَهِدَتْ به الأَعداءُ. . .

فجـاءَهـا القـاسميُّ يَصِـلُ بعضَ ما انقطَعَ، ويُحْيي شَيْئاً مِن مَوَاتِ القُلُوبِ التي أفسدَها احْتِجابُها رَدْحاً طويلاً عن السنَّةِ وعلومها بما أُخِذَ به أَهلُهـا مِن مُتـابعـةٍ لأَهْـلِ الأَهْـوَاءِ المُضِلَّة، ومُجَـاراةٍ لُمحبِّي الـرِّياسةِ والسُّمْعَـة، وخوفٍ على نَفْسٍ أَنْ تُؤذى، أَو مالٍ أَنْ يُنْتَقَصَ، واستِعْلاءِ أَصْحابِ الطُّرُق، واستِحْوَاذِهِمْ على العامَّةِ وكثيرٍ من الخاصّة، وإِعْجابِ جلِّ أَتْبَاعِ المَذَاهبِ بالآراءِ المَوْروثةِ واسْتِمْكانِها من نفوسهم، فلا يرون لغيرهـا من حق أو شبـه حق مكـاناً عندهم، ويخبطون خبط عَشْواءَ في متاهاتٍ لا أَوّلَ لها ولا آخِرَ من الآراء والأَقوال والظُّنون.

حتى إذا اسْتَيْأَسـوا وقَفـوا مُهْـطِعينَ رؤُوسَهم لا يرتَـدُّ إليهم طرفُهم وأفئدتُهم هَوَاء.

وَحَمَلَ القاسميُّ عِبْئاً كبيراً، فَقَلَمٌ يكتبُ، ولسانٌ يُحَدِّثُ، وعقلٌ يدورُ في أَرْوِقَةِ الماضي والحاضِر، يلتقطُ شَتَاتَ العلوم والمعارف، يُؤَلِّفُ بينها، ويَنْسِجُ منها كُتُباً نافِعَةً، تَجري في الناس جَرَيانَ الماءِ الرَّقْراق في جَدَاولِ الـرَّبيع، يُسـارعـون إليهـا يُمَتِّعـونَ بهـا عقولَهم، ويَجْلونَ بها أذهانَهم، ويَسْتذكِرون بها ما غاب عنهم ـ زماناً ـ من سيرة شيخ الإسلام.

ولقـد كان مِمّـا كَتَب الجمـالُ القـاسِميُّ كتـابَـه النـافعَ المُسْتَطابَ

«الاستئناس لِتَصْحيح أَنْكِحَةِ النَّاس» . . .

وَمَنْ يقرأ كتابَه هذا يَحُسُّ إِحْسَاساً وافِراً ضَخْماً أنَّ القاسميَّ رَكِبَ فُلْكَ الاجتهاد، وكَسَرَ قَيْدَ التَّقْليد، وسار في الطَّريقِ الذي شَرَعَهُ الأئمّةُ الأعلامُ مِن سَلَفِ هذه الأُمَّةِ، فاستنارَتْ بهم الأرض، وصارت أقلامهم مصابيح هادية انجلت بها الظلمات، واستنارت بوَهْجِها العقولُ، فأخذ نفسه في هٰذا الكتابِ مَأْخَذاً حازماً واضحاً جريئاً، فأَبدىٰ سريرتَهُ المُكَتَّمةَ بالانتصار للحقِّ في سطور جليَّةٍ، يَنْبو عنها النَّظَرُ الأَعْشىٰ، ولا يلِمُّ بها إلّا مَن أُوتِيَ حَظّاً مِنَ العلمِ المَوْروثِ عن أَطباقِ السابقينَ من أَسلافِ هذه الأُمَّةِ الصالحين.

وما كانَ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ لِيُواطِىءَ ما جرى عليه المُتأَخِّرون، ولا مَنْ كان على مثلِ ما هم عليه مِن بَعْضِ المُتقَدِّمين، فتشابهوا في الرَّأْيِ الذي يبدو ضعفُه ووهاؤه من أَوَّلِ نظرةٍ إليه، ولو كانَ النَّاظِرُ شَادِياً في العِلْمِ الصَّحيحِ!

وما حَمَلَهُ على تأليفِ كتابِه هذا إلَّا غيرتُه على العامَّةِ الذين ابتُلوا بأَمثالهم مِمَّنْ يُلْبِسُ نفسَه ثَوْبَ العِلْمِ، فَأَدارَ رَحَى قَلَمِهِ لِيُخْرِجَ مِن تحتِه طِحْناً مُشْبَعاً سائغاً للطَّاعمينَ: بِسَوْقِهِ الأَدِلَّةَ الواضِحةَ الدامغةَ على بُطلان ما يُفْتي به هٰؤلاءِ لأُولٰئكَ، وبإِتْيانه بالآدابِ الشَّرْعيَّةِ التي يجبُ أَنْ تُراعىٰ في مسألةٍ اجتماعيةٍ مهمّةٍ غاية، وهي مسألةُ الطَّلاق، فيبعثُ ـ بذلك ـ الطمأنينةَ في قلوبِ الناس على صِحَّةِ أَنْكِحَتِهِمْ، وسَلَامَةِ أَنْسَابِهِمْ.

وقَيَّضَ اللهُ لهٰذا الكِتَاب الأَخَ الشَّابَّ علي حسن علي عبد الحميد،

فَأَتى عليه تَخْريجاً، وَتَوْثيقاً، وَرَدّاً، وتعليقاً، فكانت تعليقاتُه كلُّها ثَمَراتٍ يانِعَةً، زادَتِ الكتابَ وضوحاً وبياناً، وَوَصَلَتْهُ بنفائسِ الكُتُبِ.

وإنِّي لأَرىٰ لهذا الأخِ يَرَاعَاً سَيَقِفُ ـ إنْ شاءَ اللهُ ـ في مَصَافِّ يَرَاعاتِ مَنْ سَبَقوه ممَّن نفع اللهُ بهم المسلمين، وَفَّقَهُ اللهُ، وجَنَّبَه مَوَاطنَ الزَّلَلِ، ومَزَالقَ الغُرورِ، وَجَعَل له مِنْ دينِهِ رِدْءَاً ينفعُه في آخِرتِهِ ودُنياه.

وصلّى اللهُ وسلم وباركَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آله وصحبه.

وكتبه

محمد ابراهيم شقرة

مقدمة المحقق

إنَّ الحمد لله نحمدُه ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدِهِ الله فلا مضل له، ومَنْ يُضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فهذه رسالةٌ مفيدةٌ أنشرها اليوم بين القراء المسلمين في أنحاء العالم الإسلامي، محققة، مخرجة الأحاديث، تقرّ بها عين القارىء إن شاء الله تعالى.

ولقد شعرت مراراً - عند مطالعتي لهذه الرسالة - بحاجة مسلمي اليوم إليها حاجةً شديدةً جداً، وسيعرف القارىء الكريم السبب في ذلك عند مطالعته لها.

والذي زاد همتي، وأكّد إصراري على إعادة نشرها بهذه الصورة المشرقة البهية هو نُدرةُ نسخها، وقلة تداولها، حتى غَدَت في حكم المفقود.

وسأقدم بين يدي الرسالة بمقدمتين مهمتين:

الأولى: قيمة هذه الرسالة.

الثانية: ترجمة المصنف.

فالله العظيم أسأل أن ينفع بها المسلمين، وأن يأجر كاتبها، ومحققها، وناشرها،

والناظر فيها، إنه سميع مجيب، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

الزرقاء في:

١٨ شوال ١٤٠٥هـ

وكتب

أبو الحارث علي بن حسن بن علي

قيمة هذه الرسالة

إن الحياة الاجتماعية لها أهميةٌ عُظمى في ديننا العظيم، وتأكيدُ ذلك ظاهرٌ في كثير من الآيات القرآنية، والأحاديث الصحيحة النبوية.

ومِن أَوْكد المسائل الاجتماعيات مسائل الزواج والطلاق، فعليهما يتركز عُظم الحياة الاجتماعية بين الذكر والأنثى، اللذين هما قطبا الحياة البشرية.

وهذه الرسالة تبحث في مسائل الطلاق الواردة على ألسنة كثير من أغمار العامة، دون وعي، أو معرفة، أو تثبّت.

«وهي آخر مؤلفاته، كتبها في رحلته إلى فلسطين، فأوضح فيها أن أكثر طلاق الناس غير واقع، لأنه غير مستوفٍ للشروط التي توجب وقوعها»[1].

فهي إذاً - والحال هكذا - ذات فائدة عظيمة، ونفع كبير للمسلمين جميعاً.

«وقد قال - رحمه الله - لتلميذه :- هل تدري لماذا سميتُها بهذا الاسم؟ قال: لا أدري، قال: إنني بينت في هذه الرسالة بالأدلة القطعية أن أكثر طلقات الناس غير واقعة، وصدَّرتها بكلمة (استئناس) ليُقبل الحشوي[2] الجامد على قراءتها، ولا ينفر منها، وفي الحقيقة ينبغي أن تسمى (الأدلة القاطعة على تصحيح أنكحة الناس)[3]».

---

(١) «شيخ الشام جمال الدين القاسمي» (ص ٧١) للأستاذ محمود مهدي إستانبولي.

(٢) أراد المصنف رحمه الله من هذه النسبة، معنى الجهل، والتقليد الجامد، لا المعنى الذي كان معاندو أهل السنة يطلقونه على أعدائهم السنيين، وانظر كتاب «تأويل مختلف الحديث» (ص ٥٥) للإمام ابن قتيبة، و «الغنية» (ص ٨٠) لعبد القادر الجيلاني.

(٣) «شيخ الشام» (ص ٧١).

إذا عرفت ذلك - أخي القارىء - فيجب عليك قراءتها بتدبر واهتمام، ثم تبليغ هذا العلم النافع لمن يليك من الأهل والأصحاب، والله تعالى أعلم.

***

ترجمة المصنف

● هو الشيخ الإمام، العلامة: جمال الدين بن محمد بن سعيد بن قاسم بن صالح بن إسماعيل بن أبي بكر القاسمي.

● ولد ضحى يوم الاثنين لثمانٍ خلت من شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين ومئتين وألف.

● نشأ في بيت دين، وورع، وخُلُق كريم، وكان أبوه فقيهاً شاعراً، غلب عليه الأدب، وكان جده فقيهاً عالماً صالحاً.

● درس على مشايخ كثيرين:

فقرأ القرآن على الشيخ عبدالرحمن المصري ثم الدمشقي، وجوَّده على شيخ قراء الشام الشيخ أحمد الحلواني، ودرس التفسير والحديث والفقه والأصول وعلوم العربية على أجلّ علماء الشام كالشيخ سليم العطار، والشيخ بكري العطاري، ونال إجازات علمية عامة من الشيخ محمود الحمزاوي، والشيخ طاهر الآمدي، والشيخ محمد الطنطاوي، وغيرهم.

● لقد ترك - رحمه الله - في نفوس طلابه، بل في نفوس كثير من الذين كانوا يَردون مجلسه، وينهلون من معين أدبه وعلمه أثراً باقياً، لقد كان مربياً لطيف المعشر، كريم الخُلُق، كبير القلب، باديَ الحب، لا يرى منه الناسُ إلا وجهاً طَلْقاً، وجانباً ليّناً، وأُنساً ممتعاً، إلى جانب العلم الغزير، والأدب الوفير.

● خلّف - رحمه الله - وراءَه كتباً ورسائل تجاوزت المئة، على صغر سنه، وكثرة أعماله.

ومؤلفاته غزيرة المادة، مختلفة المواضيع، متينة المعالجة.

● توفي - رحمه الله - مساء السبت في الثالث والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة وألف، ولم يبلغ الخمسين من عمره، فرحمه الله وأجزل ثوابه.

● ودُفن في مقبرة الباب الصغير - بدمشق.

مصادر ترجمته:

١- «حلية البشر» (١/٤٣٥) لمحمد كرد علي.
٢- «المذكرات» (٣/٦٨٧) له.
٣- «تراجم أعيان دمشق» (ص١١٨) للشطّي.
٤- «منتخبات التواريخ لدمشق» (٢/٧١٦) للحِصْني.
٥- «معجم المفسرين» (١/١٢٧) لعادل نويهض.
٦- «معجم المؤلفين» (٣/١٥٧) لعمر رضا كحالة.
٧- «فهرس الفهارس» (١/٣٥٨) للكَتّاني.
٨- «معجم المطبوعات» (١٤٨٣) لسركيس.
٩- «معجم الشيوخ» (١/١٧٧-١٨٦) للفاسي.
١٠- «الأعلام» (٢/١٣٥) لخير الدين الزركلي.
١١- «الموسوعة العربية الميسرة» (١/٦٤٠) لغربال.
١٢- مقدمة عاصم البيطار لـ «موعظة المؤمنين» (٩-١٦).
١٣- مقدمة ظافر القاسمي لـ (٢/١٩١-٢٠٦) من «قاموس الصناعات الشامية».

وقد ألّف ظافر بن جمال الدين القاسمي كتاب «جمال الدين القاسمي وعصره» وقد طبع في بيروت سنة ١٣٨٥هـ.

وللأستاذ محمود مهدي استانبولي كتاب «شيخ الشام: جمال الدين القاسمي» طبع في المكتب الإسلامي - بيروت، سنة ١٤٠٥هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعَلَى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد عُلم ماابتُليتْ به العامةُ من كثرة الحَلْفِ بالطلاق، وجريانهِ على أَلسنتهم في جميع الأوقات عَلَى الإطلاق، فتراهم يحلفون على كل شيء بالطلاق، حتى على تناوُلِ الأكل والشُّرْب وعَلَى الاجتماع والافتراق، ولا يُحصى في كل يوم من الأيام، عددُ حَلْفِهم بالطلاق والحرام، وقد عَمّ البَلَا، أهلَ المدن والقُرى.

ثم اتّفق أني سمعتُ بعض المُتفقهة المتعصبين يقول بأنَّ هذه الأَيْمان لما كانت واقعةً على الحالفين بها لا محالة، وقد أَفْسَدَتْ أنكحتَهم بتجاوزها الثلاث، كانت أولادهُم أولادَ زنا، وذريتُهم مبنيةً على الفُحش والخَنَا.

فأخذتني الغَيْرة على هؤلاءِ العامةِ لّما سمعتُ ذلك، وقُلت: والله ليس الأمرُ كذلك، فطفق يجادل مطيعاً داعيَ التعصب، وعادلاً عن العدل والإنصاف إلى المُماحكة والتصلّب، وأنا أردُّ هذا القذف عن عامة المسلمين، وأقول: إنَّ رمْيَهم بهذه الفاحشة لقَذْفٌ في أعراضهم تأباه الملةُ والدينُ، وكيف يكون أكثرُ أولادِ العامةِ أولادَ حرام، والعامةُ هي السوادُ الأعظمُ وأكثر [أهل] الإسلام. فقال: إن عندي في ذلك أقوالاً كثيرة، في كتب شهيرة، فقلتُ له: رُوَيدك، إنَّ الحقَّ في المسائل ليس مُنحصراً في قول ولا مذهب[1]، بل لا يسوغ لأحدٍ أن يجعل الحقَّ عند فريق واحدٍ في كل مطلب، مادامت المسائل اجتهادية، لم يَرِدْ فيها نصوصٌ قطعيةٌ، وقد اختلف فيها الأئمة قديمًا وحديثاً، وهذا يؤوِّل آيةً وذاك يؤوِّل حديثاً.

---

(١) وهذه قاعدة عظيمة من قواعد أصول الفقه الإسلامي.

وقد أنعم الله على الأمةِ بكثرة مجتهديها، وبعدم انقطاع رجال الاجتهاد فيها، كي لا تخلو الأرض - والعياذ بالله - من قائمٍ لله بحجة[1] وهادٍ إلى البرهان ومُرشدٍ إلى واضح المحجّة.

وجليٌّ أنَّ عدة المجتهدين من السَّلَف والخَلَف لا تُحصى، وأقوالهم وفتاويهم في نوازل الأقضية لا تُستقصى، وكلُّهم من رسول الله ملتمسٌ[2]، ومن أنوار شرعه مقتبسٌ.

وللسَّلَف من الصحابة والتابعين، أقوالٌ في مسائل الطلاق، لا تقتضي ماتَوَهَّمْتُهُ[3] من وقوعه على العامة بالاتفاق، وماذا عليهم إذا أخذوا بقول السلف الصالحين، وكلُّهم من عيون الأئمة المجتهدين، فإنَّ الأئمة من الصحابة والتابعين، ومَنْ بعدهم من المجتهدين، تنازعوا في مسائل كثيرةٍ: هل يقع فيها الطلاق أو لا يقع؟ وهل يقع واحدة أو ثلاثاً؟ وتنازعوا في بعض الصور: هل الطلاق مباح أو محرم؟ كما سنأثره بَعْدُ معزوّاً إلى كل جِهْبِذٍ مقدَّم.

وقلتُ له أيضاً: أتظنُّ أنَّ غير الأئمة الأربعة لا يُعمل بأقوالهم في الفُتيا وقضاء الأحكام؟ وأنه لا يجوز الخروجُ عنهم في الحلال والحرام؟ أَوَ تَزْعُمُ أنه لم يرد في أقوال العلماء والمحققين، ما يُجيز العملَ بقول غيرهم من صحابة وتابعين؟ إنْ كنتَ تظن ذلك أو تزعمه فقد ظننتَ باطلاً، وزعمت خطأ عاطلاً، كيفَ والصحابةُ أجدرُ الناس بالاتباع، ثم التابعون مِنْ بعدهم بلا نزاع، إذ لم يُختلفْ في أنه يؤثر في باب

---

(١) وللحافظ الإمام جلال الدين السيوطي رسالة «الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض» مفيدة في بابها جداً، وهي مطبوعة متداولة.

(٢) وهذا على وجه العموم، وإلَّا فإن هناكَ أقوالاً مذهبية كثيرة ليست معتمدة إلَّا على مجرد الرأي، دون الاعتماد على الكتاب والسنة!.

(٣) الخطاب مازال من المصنف لصاحبه المتفقه المتعصب!.

التقليد[1] لمن يؤمّه الأعلمُ والأفضلُ، ثم الأمثل فالأمثلُ.

قال: أنا لا أعترفُ إلا بالمأثور من فقه الأئمة الأربعةِ، وأُنكرُ على من ينحو نَحْوَ غيرهم برخصة أو سَعَة، فقلت له: أعوذ بالله من الجهل الفاضح، والضلال الواضح، أما قرأت «جَمْعَ الجوامع»[2] وهو مما يقرؤه المبتدئون في الأصول، وقول مؤلفه السُّبْكي[3] في خاتمته في عقيدته التي تلقَّاها مَنْ بعده بالقَبول[4]، وهي قوله مع شرحه[5]:

(و) نرى (أن الشافعي ومالكاً وأبا حنيفة والسفيانين[6] وأحمد والأوزاعي وإسحق) بن راهَوَيْهِ (وداود) الظاهري[7] وسائر أئمة المسلمين على هُدىً من ربهم اهـ.

فسمّى تِسعةً لعِظَم شهرتهم، وعمَّ مالا يُحصى بَعْدُ مِن سائرهم، حتى دخل في قوله: «وسائر أئمة المسلمين» كلُّ إمام مجتهد من التابعين، ومَن بعدهم كالإمام زين العابدين وابنه الإمام أبي جعفر الباقر وابنه الإمام جعفر الصادق[8]، وأئمة آل البيت الحَسَني والحُسَيني وغيرهم من أئمة الحديث والفقه والفتوى، فكلُّهم أئمةٌ

---

(١) انظر رسالة «القول السديد في الاجتهاد والتقليد» للإمام الشوكاني، وهي مطبوعة بتعليق عبدالرحمن عبدالخالق.

(٢) ذكره حاجي خليفة في «كشف الظنون» (١/٥٩٥) وهو مطبوع متداول.

(٣) هو تاج الدين عبدالوهاب بن علي السُّبْكي، المتوفى سنة (٧٧١هـ) ترجمته في «الدرر الكامنة» (٢/٤٢٥).

(٤) سوى بعض المباحث، كالصفات الإلهية، وغيرها.

(٥) انظر «حاشية العطار على جمع الجوامع» (٢/٤٩١).

(٦) الثوري، وابن عُيَينة.

(٧) وتراجمهم معروفة مشهورة.

(٨) وقد ترجمهم جميعاً المُحبُّ الطبري في «ذخائر العُقبى في مناقب ذوي القُربى» وهو مطبوع.

أخيارٌ، ذوو فقه وفتاوى وآثار؛ رضي الله عنهم، يأخذ بقولهم المُقَلِّدُ[1]، ويدعم رأيه برأيهم إذا وافَقَه المجتهدُ، وكم لهم مِن مُقلدةٍ وأتْباعٍ، منتشرين في كثير من الأصقاع! ومَن قرأ تواريخَ تقويم البلدان، رأى من ذلك مالم يكن في الحُسْبان!!.

ثم قلتُ له: أَمَا قَرَأْتَ «ميزان[2]» العارف الشَّعْراني[3] قدس الله روحه وقولَه بهذه الميزان إلخ مامثاله[4]: «من علامة عدم صحة اعتقاد الطالب في أنَّ سائر أئمة المسلمين على هُدىً من ربهم، كونُه يحصل له في باطنه ضَيْقٌ وحَرَج إذا قلَّد غير إمامة في واقعه، ويُقال له: أين قولك: إن غير إمامك على هُدىً من ربه؟ وكيف يحصل في قلبك ضَيْقٌ وحرج من الهُدى؟ فهناك تندحض دعواه، ويظهر له عدم صحة عقيدته إن كان عاقلاً».

ثم قوله قدس الله روحه أيضاً[5]: «من لازم من ترك العمل بجميع الأقوال المرجوحة نقصان الثواب وسوء الأدب مع أصحاب تلك الأقوال».

ثم قال: «فمن توقف في حصول الثواب بما سَنّه المجتهدون وطالَبَنا بالدليل على ذلك قُلنا له: إما أن تؤمن بأن سائر المسلمين على هدىً من ربهم، فلا يسعُه - إنْ كان صحيح الاعتقاد - إلَّا أن يقول: نعم، فنقول له، فحيثما آمنتَ بأنهم على هُدىً من الله تعالى وأن مذاهبهم صحيحةٌ لزمك الإيمان بالثواب لكل من عمل بها على وجه الإخلاص».

---

(١) إن المعنى الـذي أراده المصنف من قولـه: «المقلد» هو غير المعنى المصطلح عليه بين الأصوليين، إنما هو يريد معنى المُتّبع، وهي المرتبة الوسطى بين الاجتهاد والتقليد، وانظر «الاعتصام» (٢/٣٤٤) للشاطبي.

(٢) ذكره حاجي خليفة في «كشف الظنون» (٢/١٩١٨) وهو مطبوع مشهور.

(٣) هو عبدالوهّاب بن أحمد، المتوفى سنة (٩٧٣هـ)، ترجمته في «شذرات الذهب» (٨/٣٧٢).

(٤) انظر «الميزان الكبرى» (١/١٣).

(٥) نفسه (١/١٩).

أما سمعت البيت الذي ينشده شُرَّاح «الجوهرة»[1] :

وجـــائـــزٌ تقليدُ غيرِ الأربعـــة في غير إفتـــاءٍ وفي هذا سَعَـه

وهل تعلم معنى قوله : «في غير إفتاء؟» وربما عذرتُك فقد خفي معناه حتى على بعض النُّبهاء، فظن أن المراد أنه يُعمل بأقوال ماعداهم في خاصة النفس دون الفتيا للناس، فَخَبَّط في ذلك، ولَبِسَ غاية الالتباس، وهل عُهد في الشريعة حكمٌ من أحكامها تعمل به الخاصةُ دون العامةِ، أو فرعٌ دينيٌّ يُهمس به ولا يُجهر للأمة؟ كلَّا ثم كلَّا، وإنما تعلّق قوله : «في غير إفتاء» بقوله : «تقليد» أي : وجائزٌ التقليدُ في غير حالة الإفتاء، لأنَّ حالة الإفتاء يجب فيها الاجتهاد، ولذا اتفق الأصوليون على اشتراط الاجتهاد للمُفتي[2] وقالوا : المفتي هو المجتهد، فكأنه يقول : ويجوز التقليد لغير المجتهد، وهي كلمةٌ مُتفق عليها بين أهل الأصول لا تحتاج إلى أن تطول في صحتها النقول.

وأما غير المجتهد ومَن ليس له بأهل فجائزٌ له التقليد للأئمة الأربعة ولغيرهم، ولا يسوغُ نسبةُ الضعف لأقوال سواهم، وتضعيف مايُضعَّف من الأقوال، لا يسلم إلَّا إذا خالف ماهو أقوى منه في باب الأدلة والاستدلال. وحاشا أن يصير الضعيفُ ضعيفاً بمجرد التضعيف، أو يقول فقيهٌ بدون دليل من كتاب أو سنة : هذا لا يُفتى به أو هذا ضعيف، بل لابد من التَّمحيص والتدقيق، وبذل الجهد والخروج من المأثم بالتحقيق، فالأمرُ ليس بالسهل، حتى يُقدم على التقول في ذلك المُتَطَفِّلُ على موائد العلم والفضل.

---

(١) هي «جوهرة التوحيد» لِلَّقَّاني، وانظر «الشرح الجديد على جوهرة التوحيد» (١١١-١١٣) للعدوي.

(٢) انظر «الموافقات» (٤/ ١٦) ولصديقنا الدكتور محمد سليمان الأشقر رسالة «الفتيا ومناهج الإفتاء»، انظر (ص٢٧-٢٨) منها، فإنها مفيدة.

ثم قلت له: ألا تدري أنه انتمى إلى غير الأئمة الأربعة مِن أبطال العلم والعرفان، مَنْ سارت بذكر فضله الركبان؟ هذا الإمام أبو القاسم محمد الجُنَيد البغدادي[1] سيد الصوفية علماً وعملاً كان عَلَى مذهب أبي ثور[2] صاحب الإمام الشافعي.

وهذا القدوة أحمد بن نصر بن زياد النَّيْسابوري[3] رحل إلى أبي عُبيد وكان يُفتي بنيسابور على مذهبه كما حكاه السُّبْكي في ترجمته[4].

وهذا القاضي أبو الفرج المُعافى بن زكريا النَّهْرَواني[5] كان على مذهب الإمام أبي جَعْفر بن جرير الطبري مُقَلِّداً له حتى كان يقال له: «أبو الفرج الجريري» نسبة لابن جرير، كما نقله ابن خَلِّكان[6].

وهذا الشيخ محيي الدين بن عَرَبي الأندلسي[7] دفين صالحية دمشق شيخ الصوفية في عصره كان على مذهب الظاهرية - أي داود وابن حزم الظاهِرِيَّيْن - وقد ملأ فِقْهَ «فتوحاته المكيّة» من مذهب الظاهريَّة ولم يُعَوِّل على غيره كما يعلمه من قرأها، فإن اختياراته ونُقُوله كلها من فقه الظاهرية على الإطلاق، ولَمَّا سَبَرت مطالعة «الفتوحات» في بعض الأعوام رأيتُ أنَّ كلَّ المباحث التي ناقش ابنُ عربي فيها الفقهاء الجامدين منقول من «مُحلَّى» الإمام ابن حزم، بعضه بالحرف وبعضه

---

(١) المتوفى سنة (٢٩٧هـ) ترجمته في «الحلية» (١٠/٢٥٥).

(٢) انظر كتاب «فقه الإمام أبي ثَوْر» للأستاذ سعدي جبر.

(٣) المتوفى سنة (٢٤٥هـ).

(٤) من «طبقات الشافعية الكبرى» (١/٢٨٧).

(٥) في «الأصل»: النهراني، والتصحيح من مصادر ترجمته، وتوفي رحمه الله سنة (٣٩٠هـ) ترجمته في «تاريخ بغداد» (١٣/٢٣٠) و «غاية النهاية» (٢/٣٠٢).

(٦) في «وفيات الأعيان» (٥/٢٢٤).

(٧) انظر تعليقي على «التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار» (ص١٠و١٣) لابن شيخ الحِزَاميِّين.